تفسير

سورة الفيل

للدكتور: فضل حسن عباس

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * [١]
ألم يجعل كيدهم في تضليل * [٢] وأرسل عليهم
طير أبابيل * [٣] ترميهم بحجارة من سجيل * [٤]
فجعلهم كعصف مأكول * [٥].

اللغة

(١) ألم تر: هذه الجملة يخاطب بها من علم الشيء على سبيل التدبر والتذكير والعجب. ويجوز أن يخاطب بها على قلة من لا يعلم الشيء، على سبيل التعجب من شأن المتحدث عنهم، وتذكر المخاطب. ولقد وردت كثيرا في كتاب الله تبارك وتعالى، ولا تستعمل إلا لأمر ذي خطر يستحق العناية والاهتمام. قال تعالى: (الم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) (١)، (الم تر إلى الملأ من بني اسرائيل) (٢)، (الم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه)(٣)، (الم

(١) سورة البقرة آية ٢٤٣ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٤٦ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) (١) ، (الم تر إلى الذين نهوا عن النجوى)(٢) هذه كلها أمور يتعجب من شأنها .

والاستفهام لتقرير الرؤية ، ، ويمكن أن تكون بصـــرية ويمكن أن تكون علمية ، وهو الاولى بها هنا ، لأن « رأيت » كما تستعمل في الابصار تستعمل في العلم .

(٢) الفعل : وهو الاثر الناشيء عن مؤثر وهو أعم من العمل .

(٣) الكيد : ضرب من التدبير الخفي وغالباً ما يكون بسوء .

(٤) التضليل : الضياع والاضلال .

(٥) أبابيل : جماعات ، وهو جمع لا مفرد له من لفظه ؛ وقيل : إن مفرده أبول أو إيبال ، أو إبالة .

(٦) سجيل : الطين المتحجر وقيل : الديوان الذي فيه عذاب الكفار كما ان سجين الديوان الذي فيه أعمالهم .

(٧) العصف : القشر أو التبن .

التفسير

هذه الصورة مكية . والصبغة المكية فيها ظاهرة وهي تثبيت الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وبيان عظيم قدرة الله وسنته في اهـــلاك المنحرفين . فجو السورة الكريمه يشيع في نفس النبي والمؤمنين الثقة والأمن ، وينشر في نفوس اعداء الله الرعب والهلع سيما وحادثة الفيل عاشها الكثيرون ممن أدركوا بعثة الرسول ﷺ لأنها كانت في العام الذي ولد فيه ، ومن لم يعشها سمعها سمعاً متواتراً . فليس بينهم وبينها قرون . وأيضا فلقد كانت في مكة بلدهم ، فلم يكن بينهم وبينها المسافات الشاسعة ، لذا فهي تقرع افئدتهم ، لأنها تهديد واضح لكل من ناصب النبي العداء . فإذا كان الله تبارك وتعالى قد انتقم لبيته فـــإنه سيكون أشد انتقاماً لنبيه الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه واختاره لحمل رسالته .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٣ .

(٢) سورة المجادلة آية ٨ .

والقضية ذات ايحاءات كثيرة متعددة ، وبخـاصة عند الذين جمعوا بين مشاهدتها أو سماعها بالتوتر وبين السليقة العربية التي لم تفسد .

وموجز القضية أن أبرهة الحبشي أراد أن يصرف العرب عن الكعبة لأسباب دينية وسياسية واقتصادية فبنى كنيسة في اليمن ولكن العرب مع جـاهليتهم كان للمقدسات في نفوسهم حرمة ، فغاظهم فعل أبرهة وعبروا عن هذا الغيظ بوسائل مختلفة مما جعل أبرهة يعجل بتنفيذ ما صمم عليه وهو هدم البيت العتيق ، وخرج مع الآلاف من الأحباش موقنين بالوصول إلى غـايتهم الخبيثة . كيف لا ؟ ؟ ومعهم الفيل ؟ يزيد في غرورهم وصلفهم . ووصلوا إلى مكة ، وكان معهم رجل من ثقيف دليلا ومات في طريقه ورجم العرب في الجـاهلية قبره ، لأن نفوسهم كانت تعاف الخيانة والخونة وبخاصة إذا كانت هذه الخيانة تمس المقدسـات والاوطان ، وهو أبو رغال ، لقد كان أول خائن للعرب في جاهليتهم كما كان ابن العلقمي أول خائن للمسلمين وهو الوزير تواطأ مع التتار لاسقاط الخلافة في بغداد . ثم كثر من بعده الخونة .

أما أهل مكة وعلى رأسهم عبد المطلب فما كان منهم إلا الجوار الى الله فهذا عبد المطلب يقف يهز حلق البيت ينادي ربه : —

لا هُمَّ إن المرءَ يمنعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ حَلالَكْ
وانصُرْ على آلِ الصَّليب وعابِديه اليومَ آلَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ورماحُهُمْ أبدا مِحالَكْ

أما الفيل الذي نسبوا اليه ، واعتمدوا عليه فلقد حبسه الذي يحبس الرحمة عن قساوة القلوب سبحانه وتعالى . وعبثا حـاولوا أن يوجهوه نحو البيت . وفي هذه الأنباء أنزل الله بالعصاة بأسه ، فـأرسل الطير ترميهم بالحجارة فـارتدوا خائبين « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (١) .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » .

---

(١) سورة الانعام آية ٤٥ .

الخطـــاب للرسول عليه وآله الصلاة والسلام ؛ أي ألم تعلم أيها النبي علم يقين وعلم معاينة ومشاهدة لا يدخل إليها الريب ؛ كما لا يدخل لما تراه وتشاهده بعينك كيف فعل ربك الذي رباك وتعهدك؛ وشملك بعنايته ورعايته بابرهة وجنده.

واسنـــاد الفعل إلى لفظ الرب وإضافته لضميره ﷺ ؛ فيه من التسلية له والقدرة بالنصر والطمأنينة والتكفل بدحر أعدائه مالا يخفى .

وقد وردت هذه الصيغة في قول الله (الم تر كيف فعل ربك بعاد) إلى أن قال (إن ربك لبالمرصاد) ، وليس بعد هذا الاسلوب اكثر طمأنينة للمؤمن وأشد تهديداً للكافرين .

ويبين الله ما حل لهؤلاء في قوله (ألم يجعل كيدهم في تضليل) والاستفهام للتقرير ؛ أي ألم يفوت عليهم تدبرهم الخبيث ومـــكرهم السيء وإرادتهم السوء ببيته (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) (١) .

لقد جعل كيدهم في ضلال وضياع ؛ وهذه سنة الله في الخلق فعلى الباغي تدور الدوائر .

ثم بين الله تعالى كيفية عقابهم ، فقال سبحانه (وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

لقد اعتمدوا هؤلاء على الفيل وهو آية في الضخامة والكبر ، فسلط الله عليهم صغار جنده من الطير ، وتلك آية من آياته ، أن يسلط على من اعتز بغيره ضعيف خلقه وجنده ، (وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي الا ذكرى للبشر) (٢) .

وكانت هذه الطير المسخرة المسلطة ترميهم بحجارة صغيرة من طين متحجر فتفتك هذه الحجارة الصغيرة بهم فتكا ذريعا لا يمكن أن يعبر عنه بأبلغ مما قاله الله (فجعلهم كعصف مأكول) . أي فجعلهم كتبن أكل حبه أو كروث متفرق الاجزاء ، ولقد كانت أجسامهم كذلك من شدة الفتك .

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٢) سورة المدثر آية ٣١ .

وفي الصورة الكريمة لفتات بيانية رائعة نذكر من هذه اللفتات ؛ قوله تعالى (كيف فعل ربك) . فعلق الرؤية بالكيفية دون الفعل نفسه ، فلم يقل : ألم تر ما فعل ربك مثلا ، لأن كيفية الفعل حري بالنفوس أن تتدبرها .

ومن هذه اللفتات البيانية قوله تعالى (طيرا) حيث أوردها منكرة ؛ والتنكير قد يكون للتحقير أو للتفخيم أي وأرسل عليهم طيراً آية في الصغر إذا قورنت بالفيل أو وأرسل عليهم طيراً أى طير تفتك بهم .

ومن هذه اللفتات . قوله تعالى (ترميهم) : حيث عبر بالفعل المضارع ولم يقل رمتهم . والغرض من هذا استحضار صورة الرمي في النفس كأنهم يشاهدونها الآن . فتكون في النفس اكثر وقعا واشد تأثيراً .

وأخيراً لا ننسى تشبيههم « بالعصف » حيث لا تماسك لأجزائه ولا قيمة له وكذلك هم كانوا ، فجلَّ الله .

وقبل أن أختتم القول لا بد أن أشير لأمرين اثنين :

(الاول) : لم عجل الله عقوبة أبرهة ، ولم يفعل بالحَجَّاج أو بالقرامطة الذين اعتدوا على البيت هذا الفعل ؟

والجواب : من وجهين : أولا . لقد كان هذا إرهاصاً قبل بعثة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، فكان نوعا من اكرامه لنبيه .

ثانيا : لقد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام .

أما الأمر الثاني : وهو ذو خطر وأهمية ؛ فهو ما ذهب اليه بعض المفسرين الذين أرادوا تضييق نطاق الخوارق من جهة وتوسيع دائرة العقل من جهة ثانية وفتنوا بالعلم المحسوس من جهة ثالثة ؛ ففسروا هذه الحادثة بما يلي : ـ

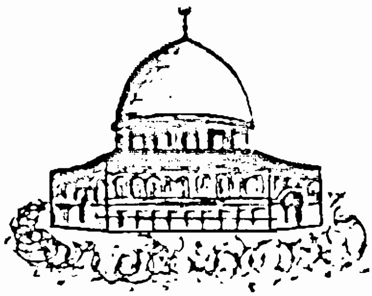
« قالوا : الطير هي الحشرات والحجارة هي المكروب كالجدري والكوليرا» ومع تقديرنا لحسن نوايا هؤلاء إلا أننا نرى أن عبارة النص لا تساعدهم على ما

ذهبوا اليه ؛ والواقع لا يؤيد ما قالوه ، فالوباء يكون عاما ولا بد له من وقت(١).

ومن أغرب ما رأيته في تفسير هذه السورة ما ذكره أحدهم وهو : (أنه لم يكن هناك طير يحمل هذه الحجارة ، وانما المقصود بالطير الحجارة نفسها ، لأنها كثيرة كالطير ، ولأن هذه الحجارة كانت من السرعة بحيث لا يقوى الطير على ايصالها لأهدافها ، أي على قذفها ، بهذه السرعة الهائلة حتى تدمر وتتبر)(٢).

ولا أظن أن هذا القول بحاجة إلى تعليق ، وذلك أنه لا يستسيغه حتى أطفال العلم . . والحق أنها مسؤلية العلماء الذين يغضون الطرف عن كل كتاب وكاتب

والله تعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) يراجع تفسير الظلال .

(٢) يراجع التفسير العلمي للآيات الكونية للاستاذ حنفي أحمد .